مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد قدوة أهل الحق واليقين وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعـــد : فبالرغم مما يلاقيه الباحث فى فلسفة ابن رشد من مشقة وتعب ، وما يصادفه من عقبات أو يعترضه من أشواك ، فأننا نرى أن هذه الفلسفة أولى بالدراسة وأحوج إلى البحث ، واستنباط مسائلها ، واستخراج مميزاتها وعناصرها من أى طور آخر من أطوار التفكير الإسلامى . فقد توفر لهذه الفلسفة من المميزات مالم يتوفر لغيرها فى أى عصر من عصور الإسلام ، ففى أحضانها بلغت فلسفة أرسطو رشدها ، وعلى يديها نضجت وخلصت من شوائب الخلط والتزييف الذى وقع فيه فلاسفة الإسلام المتقدمون . كذلك كانت هذه الفلسفة حلقة الاتصال بين الفلسفة الإسلامية والشعوب المسيحية فى أوربا ، وبواسطتها عرف المسيحيون أول منبع من منابع ثقافتهم ، وعثروا على النواة الأولى لنهضتهم وحضارتهم .

وقد كان من حسن حظ ابن رشد أن جاءت فلسفته آخر حلقة من حلقات تفكير المسلمين مما ساعده على الإلمـام بمؤلفات المتقدمين منهم ، وجمع مذاهبهم ، ودراسة تعاليمهم ، والتوفيق بين آرائهم ، وتقريظ بعضها ونقد البعض الآخر ، حتى كانت نتيجة ذلك كله أن اختلطت أفكارهم بأفكاره ، وامتزجت آثارهم بآثاره ، وأصبحت المعارف الإسلامية وغير الإسلامية منصهرة فى بوتقة ذهنه ، يستخرج منها ما شاء من الصور ، ويصبغها بمـا أراد من مختلف الألوان ، ويوجهها حسبما يرى وكيفما يريد .

وربما كانت تلك الصعوبة التى سببها ندرة المراجع العربية وقلة الكاتبين فى فلسفة ابن رشد وعدم سيره فى تآليفه على تفصيل وتبويب علمى واضح من أهم الدوافع لنا

على إيثار هذه الفلسفة ، وتخصيص ناحية من نواحيها بالبحث والتحليل ، فإن إغلاق الموضوع وصعوبة مسالكه لا ينبغى أن تحمل الباحثين على الأحجام عنه ، أو تهيب الكتابة فيه تجنباً للنصب وتفاديا للتعب ، إذ مهمة هؤلاء العلمية أولا وقبل كل شىء هى تذليل الصعاب ، ومعالجة المشاكل على قدر طاقة العقل الإنسانى ، وتيسير الطرق للسائرين ، وليست مهمتهم السير فى طريق ممهد ومسلك رحب فسيح .

وإذا كانت أولى غايات العلم — كما يقولون — هى استنباط المجهول من المعلوم ، وتوليد الحقائق بعضها من بعض فأحرى أن تكون قدرة الباحثين على ذلك الاستنباط فى تأييد حقيقة أو نقض أخرى هى وحدها المقياس الذى تقاس به جهودهم ، ويحكم به على نتائج أبحاثهم ، وأهداف آرائهم .

وربما يختلف الحكم على فلسفة أى فيلسوف باختلاف وجهات نظر الباحثين فى تفكيره ، أو فى أى ناحية خاصة من نواحى ذلك التفكير ، وبمقدار ما ينهض من الأدلة والأسانيد على وجهات النظر هذه تكون نسبة تلك الأحكام إلى الخطأ والصواب ، وهذا ما كان من أمر الباحثين إزاء فلسفة ابن رشد ، فقد كان لما تتمتع به هذه الفلسفة من رحابة الأفق وسمة المحيط أثر فى توجيه الباحثين فيها ، وفى اختلاف أحكامهم عليها .

ففريق يرى مهمته مجرد شرح وتوضيح لآراء السابقين ، وآخر يراه موفقا فحسب بين الفلسفه والدين ، وثالث يضعه فى صفوف الملحدين ، ثم بجانب هؤلاء جميعاً فريق آخر يجعله فخر المسلمين ، وقدوة المؤمنين .

على أن جملة هذه الأحكام تنحصر فى دائرة واحدة أو تشترك كلها فى حكم واحد هو أن فلسفة ابن رشد لم تكن إلا ترديد الصدى فلسفة أرسطو ، وتقليداً له فى كل ما رآه واعتقده ، وعلى ذلك لم يكن لابن رشد مذهب فلسفى خاص ، وإنما كان شارحا وموضحاً ومرددا لآراء أستاذه وشارحيه .

ولاشك أن فى هذا الحكم كثيراً من الغلو والأجحاف بحق ابن رشد ، وإنكاراً لسمو عبقريته ، ونضوج تفكيره ، فإن الناظر فى فلسفة ابن رشد على سعة أفقها ، وترامى أطرافها ، وتنوع عناصرها ، يجدها منحصرة على الإجمال فى منهجين أساسيين :

١ — منهج توفيقى تركيبى .

٢ — ومنهج تحليلى نقدى .

فالمنهج الأول يصور لنا محاولات ابن رشد فى التوفيق بين الدين والفلسفة ، وقد أفرد لذلك كتابه : « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » وربما كانت مقالته فى « أن مايعتقده المشاؤون ، وما يعتقده المتكلمون من أهل ملتنا متقارب فى المعنى » تتصل بهذا الغرض نفسه .

أما المنهج الثانى فتصوره لنا ردوده المختلفة على فلاسفة الإسلام ومتكلميه ، وشروحه لكتب أرسطو ، وانتقاده لكثير من آرائه وآراء من جاء بعده من الشارحين والمفكرين . ورغم أن البارون « كراديفو » قد أهمل الإشارة إلى تلك الطريقة النقدية عند كلامه عن شرح ابن رشد لكتب أرسطو فأننا نعتقد أن هذه الطريقة هى الصفة الأساسية التى تمتاز بها فلسفة ابن رشد على غيرها ، إذ تراه يتناول كلام خصومه بالمناقشة والتفنيد ، ثم يبين مركزه وقيمته بين الأقاويل ، وهل هو سوفسطائى أو خطابى أو جدلى محدداً درجته فى مراتب الجدل ، ويخلص من ذلك كله بنتيجة هى قصور أكثر هذه الأقاويل عن مرتبة العلم الصحيح وهى مرتبة اليقين والبرهان ، ولا يفوته أن يبدى فى غضون ذلك الشرح والتحليل آراءه الخاصة ، إما تصريحا ، أو تلويحاً ، حسبما تقتضيه طبيعة المسألة التى يدور البحث حولها .

ولما كانت هذه الطريقة ترمى إلى تجريد كل رأى عن شتى الاعتبارات ، وإنزال جميع صور التفكير أمام النظر منزلة واحدة ، وتنطوى على ثقة تامة بالعقل الإنسانى ، والتحرر من قيود التقليد والمحاكاة ، فقد أوصلت ابن رشد إلى طائفة من المسائل الفلسفية العميقة ، التى اعتمد فيها على خالص فكره ونافذ رأيه .

ولست أقصد فى هذا البحث إلى الكلام عن فلسفة ابن رشد فى شتى نواحيها ، والتصدى لإبراز مظاهر التجديد فى مذهبه ، فإن ذلك مما لا ينفرد به بحث كهذا . وإنما سأتجه فى بحثى هذا اتجاهاً خاصاً ، أتناول فيه ظاهرة واحدة من ظواهر هذا التفكير الحر والنظر المستقل ، وهى « نظريته فى الخلود وصلتها برأيه العام فى وحدة الوجود » .

وقد بقضى على أن أهدف إلى هذا الغرض دون سواه من أغراض تلك الفلسفة :

أولا : ما رأيته من غموض مشكلة الخلود عند ابن رشد ، وعدم البت فيها برأى قاطع من الباحثين ، والمفكرين .

وثانياً : ما كان لرأى ابن رشد فى وحدة العقل التى هى مظهر من مظاهر وحدة الكون من أثر بين ونفوذ قوى فى الأوساط المسيحية الأوروبية حتى اعتنق هذا الرأى كثير منهم وأعجبوا به مما أثار حافظة كبار اللاهوتيين المفكرين منهم ، فقد قام القديس « توماس الأكوينى » بوضع رسالة فى « وحدة العقل » ، رد فيها على ابن رشد وفند رأيه فى ذلك . وإنما كان ذلك لأنّ هذه النظرية لم تكن معترفا بها من وجهة النظر الدينية عند المسيحيين

وثالثاً : أن هذه الوحدة العامة ، لتفرق شواهدها فى ثنايا فلسفته ، لم تتجه إليها أنظار دراسية ، ولم يضعوها فى صفوف نواحيه البارزة رغم ارتباطها بمعظم عناصر تلك الفلسفة ، ومساسها بأغلب مسائلها ، وبروزها فى أقواله عن أى مسألة من تلك المسائل . تلك هى أهم الدوافع التى حدت بى إلى تخصيص هذه الناحية بالبحث .

أما غايتى من هذا البحث فهى محاولة الفصل فى مشكلة الخلود على ضوء ارتباطها بوحدة العقل ، وتحقيق تلك الوحدة مستنبطاً شواهدها وأسانيدها من كلام ابن رشد نفسه .

ولعلنا نلحظ أن هذا الهدف يستتبع أهدافا أخرى رئيسية ، فسنضطر فى طريقنا إلى إثبات الوحدة العامة فى مذهب ابن رشد ، ثم إلى أثبات وحدة العقل الإنسانى كنتيجة لتلك الوحدة العامة ، ثم التدرج من ذلك إلى رأى ابن رشد فى الخلود كنتيجة لرأيه فى وحدة العقل الإنسانى .

وإذاً فأهدافنا على طريق الإجمالى والتدريج هى : —

تحقيق رأيه فى وحدة الكون ، وفى وحدة العقل ، ثم شرح مشكلة الخلود ، ومحاولة حلها على ضوء ذلك .

ولعلنا كذلك نلمس من هذا أن مشكلة الخلود متعلقة بوحدة العقل ، وهذه بدورها متعلقة بوحدة الوجود ، ولا يمكننا أن نتناول رأيه فى وحدة الوجود إلا إذا

ألممنا بفكرته فى ذلك الوجود ، ثم برأيه فى الإله ، ثم بتفصيل العلاقة ، وتوضيح الصلة بين الإله والوجود .

ولما كانت دراسة أى نظرية من نظريات الفيلسوف لا تتيسر على وجه أكمل ، ومن طريق أوثق إلا بعد دراسة شخصيته ، والوقوف على ظروف نشأته ، وتحديد موقفه من ثقافة عصره وسابقيه ، لما كان ذلك كله من ضرورات البحث ، كان لا بد لنا من دراسة بيئة ابن رشد وعلى الأخص من الناحية العقلية ، والترجمة له ، وبيان مواقفه المختلفة من الفلاسفة والمتكلمين ، ليتضح لنا كيف شق ابن رشد طريقه الخاص ، واتجاهه المعين بين تلك المعارف وهذه الاتجاهات .

لهذا وذاك رأيت أن أرتب هذا البحث بعد المقدمة على أربعة أبواب وخاتمة ، ولجأت إلى تقسيم هذه الأبواب إلى فصول يتضمن كل فصل منها الكلام على مسألة من المسائل التى تندرج تحت موضوع البحث فى هذا الباب .

وسأشق بعون الله وحسن توفيقه — طريق إلى غايتى فى هذا الاتجاه ، متعرضاً لما قد يصادفنى فى هذا الصدد من مسائل ، إن فى أسهاب وبسط ، وإن فى أجمال وإيجاز على حسب ما تقتضيه ظروف البحث وطبيعة الموضوع .

والله أسأل أن يوفقنى بتأييده ، وأن يشملنى برعايته وتسديده ، وأن يلهمنى الحق والصواب ، حتى أكون قد وفيت بواجب العلم ، وقمت بمهمة الباحث ، التى رمزها الأمانة ، وشعارها الحق ، ورائدها الفكر والأخلاص ، أنه على ما يشاء قدير .

محمد بيصار

« أستاذية » بامتياز فى الفلسفة وعلم الكلام
ودكتوراه فى الفلسفة من جامعة « أدنبرة »
ومدرس بكلية أصول الدين

القاهرة { ٥ من ربيع الأول سنة ١٣٧٣
١٢ نوفمبر سنة ١٩٥٣